سُورَةُ اللَّيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ • وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ • وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ • إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ • فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ • وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ • فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ • وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ • وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ • فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ • وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ • إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ • وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ • فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ • لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى • الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ • وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى • الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ • وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ • إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ • وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾

صدق الله العظيم

السورة مكية مبكرة ، والمشهور فى ترتيب نزولها أنها تاسعةُ السور ، نزلت بعد سورةِ الأعلى ، ثم نزلت بعدها على الترتيب سورتا الفجر والضحى .

وقد ربطها بعضُهم بسورة الشمس التى قبلها فى ترتيب المصحف ، قالوا : « ولما ذكر فيما قبلها ، أى الشمس : « قد أفلح من زكاها » وقد خاب من دساها » ذكر هنا من الأوصاف ما يحصُل به الفلاحُ وما تحصل به الخيبة ، ثم حذَّر النارَ وذكر من يصْلاها ومن يتجنبها »[1] .

وهذا الربط قد يلفت إلى ملحظ فى ترتيب السورة فى المصحف ووضعِها بعد الشمس. وأما من حيث النزول فإن سورة الشمس نزلت بعد الليل لا قبلها ، فهى السورة السادسة والعشرون على المشهور فى ترتيب النزول ، فبينها وبين سورة الليل قبلها ، ست عشرةَ سورة .

وقيل إنها نزلت فى أبى بكر الصديق وإنفاقه مالَه على المسلمين ، وأمية بن خلف وبخله وكفره . وفى قول آخر إنها نزلت فى أبى الدحداح الأنصارى ، ورووا قصة النخلة التى عرض الرسول ﷺ ، على أحد المنافقين ، أو اليهود ، أن يبيعها بنخلة فى الجنة فأبى ، واشتراها أبو الدحداح[2] .

والعبرةُ على كل حال بعموم اللفظ ، والسياق صريحُ التوجيهِ إلى عامة الناس « إن سعيكم لشتى »

وتقارُب سُوَرِ (الليل والفجر والضحى) فى النزول ، يجلو الظاهرة الأسلوبية التى يعمد فيها البيان القرآنى إلى جلاء المعنويات بماديات من النور والظلمة فى مختلف درجاتهما على مدى اليوم الواحد ، من غشية الليل وتجلى النهار ، وإشراق الضحى وسجو الليل ، وتألق الفجر ومسرى الليل وتنفس الصبح .

ويتتابع الوحىُ من بعد ذلك فيوْصل هذه الظاهرة البيانية فيما يجلو من معنويات الهدى والضلال ، بحسيَّات النورِ والظلمات .

* * *

(١) و(٢) أبو حيان : البحر المحيط ٨/٤٨٢ .

« وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى • وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى » .

الغشيةُ فى اللغة الغطاء ، والغاشية الغشاء الذى يغلف القلب . واستغشى ثوبَه وبثوبه ، تغطى به لكى لا يرَى ولا يَسمع . ومن غشية النعاس المعطِّلة للحِسِّ والإدراك ، جاءت غشيةُ الإغماء فقيل أغشى عليه إذا فقد وعيَه وحِسَّه كأنما عليها غطاء . وكذلك يقال للغافل : على بصره أو على سمعه غشاوة ، أى غطاءٌ يحجب الرؤية ويعمى البصيرة ويعطل السمع والإدراك .

والغواشى الأهوال ، أو الظلماتُ تلقى لِفاعَها الأسود . ومنه جاءت الغاشية اسمًا للقيامة أو للنار تغشى المعذبين .

وفى الاستعمال القرآنى ، جاءت الغاشية على معناها فى استغشاء الثياب حاجزاً دون السمع والبصر ، كنايةً عن الصدِّ ، فى آية نوح ٧ :

« وإنى كلما دعوتُهم لتغفرَ لهم جعلوا أصابعَهم فى آذانِهم واستَغْشَوا ثيابَهم وأصروا واستكبروا استكباراً » . ومعها آية هود ٥ .

وفى النور الدافق والجلال الغامر بآية النجم : « إذ يَغْشَى السدرةَ ما يَغشى » .

وجاءت الغشيةُ فى النعاس فى آيتى

(آل عمران ١٥٤ ، والأنفال ١١)

وفى الإغماء بآيتى (الأحزاب ١٩ ، ومحمد ٢٠)

وفى الغشاوة على القلب والسمع والبصر بآيتى

(البقرة ٧ ، والجاثية ٢٣)

وكثر مجىء الغشية فى الحديث عن يوم القيامة :

« هل أتاك حديثُ الغاشية » ؟

« فارتقبْ يومَ تأتى السماءُ بدُخَانٍ مبين • يَغشَى النامسَ هذا عذابٌ أليم »

وفى الوعيد بعذاب الآخرة فى آيات :

« يومَ يغشاهم العذابُ من فوقِهم ومن تحت أرجُلِهم »

(العنكبوت ٥٥)

« سرابيلُهم من قَطِرانٍ وتغشَى وجوهَهم النارُ » (إبراهيم ٥٠)

« لهم من جهنمَ مِهادٌ ومن فوقِهم غَوَاشٍ وكذلك نَجزِى الظالمين »

(الأعراف ٤١)

كما جاءت فى غشية الموج ، وغشية الظلمات وتراكمها فى آيات :

« أو كظلمات فى بحرٍ لُجِّىٍّ يغشاه موجٌ من فوقِه موجٌ »

(النور ٤٠)

« كأنما أُغشِيتْ وجوهُهم قطعاً من الليلِ مظلما ، أولئك أصحابُ النار »

(يونس ٢٧)

وآيات (لقمان ٣٢ ، طه ٧٨ ، الرعد ٣ ، الأعراف ٥٤ ، الشمس ٤)

وآية الليل ، والغشيةُ فيها غطاءٌ من ظلماتٍ داجية .

* * *

والتجلى لغةً الظهورُ والانكشاف . ومن الاستعمال الحسى للمادة : الجلا انحسارُ مقدَّم الشعر ، والجلاءُ الكُحل يجلو البصرَ ، وجلوة العروس عرضُها مجلوة فى زينتها . وجلا السيفَ والمرآةَ صقلها وأزال ما قد يكون غطاهما من صدأ وغبار .

ومن دلالة الانحسار جاء الجلاءُ عن مكان ، وجلا الهمَّ عنه أذهبه .

ومن ملحظ الكشف : جلا الأمرَ أوضحه وبينه فانجلى وتجلى ، والجَلِىُّ الأمر البين . والتجلى الإشراق والتألق .

وفى الاستعمال القرآنى : جاءت المادة فى خمسة مواضع ، إحداها آية الحشر فى الجلاء عن الأرض : « ولولا أن كتب اللهُ عليهم الجلاءَ لعذَّبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار » ٣ .

والمرات الأربع الباقية فى تجلِّى النور الإلهى بآية الأعراف ١٤٣ :

« فلمَّا تجلى ربُّه للجبلِ جعله دَكًّا وخرَّ موسى صَعِقا »

وأمر الساعة ، بآية الأعراف ١٨٧ :

« قل إنما علمُها عند ربِّى لا يُجَلِّيها لِوَقتِها إلا هو »

وفى إشراق النهار ، بآيتى الشمس : « والنهارِ إذا جَلاَّها » .

والليل : « والنهارِ إذا تجلى » .

والآية لم تذكر مفعول « يغشَى » وقد تأولوه إما على تقدير : يغشى النهارَ كلَّه ، كقوله تعالى : « يُغشِى الليلَ النهارَ »

أو يغشى الشمسَ ، كقوله تعالى : « والليل إذا يغشاها »

وقيل الأرض وجميع ما فيها ، يغشاها الليل بظلامه .

ومثله وقوف مَن وقف عند « والنهار إذا تجلى » ليتأول سببَ التجلى « إما بزوالِ ظلمة الليل ، وإما بنورِ الشمس » .

ونرى أن القرآن الكريم فى إمساكه عن ذكر متعلق ليغشى أو تجلى ، يصرفنا عن تأويل محذوفٍ أو مُقدَّر ، لنلتفت إلى أن الغشيةَ والتجلى ، من الليل والنهار ، هما المقصودان بالتنبيه والالتفات ، بما أغنى عن ذكرِ مفعولٍ أو متعلق . . .

* * *

وسورة الليل مبدوءة بواو القسم ، وهو عند المفسرين للإعظام ، على أصل استعماله فى اللغة . والذى أطمئن إليه ، هو أن البيان قد يعدل عن هذا الأصل لملحظ بلاغى فى التعبير ، كمثلِ عدوله فى الاستفهام والأمر والنهى عن أصل استعمالها الأول ، إلى تقرير أو إنكار ، أو زجر ووعيد ، أو سخرية وتوبيخ ، أو تعجيز وإفحام . . على ما هو مألوف ومقرر فى علم البيان .

لكن المفسرين لم يلتفتوا إلى احتمال أن يكون القسم بالواو هنا ، وفى نظائرها من الآيات المستهلة بالواو ، قد جاء على غير استعماله اللغوى الأول ، لملحظ بيانى . وإنما هو عندهم جميعاً على أصله من الإعظام والتعظيم ، ومن ثم شُغلوا بتأول وجه العظمة فى الليل والنهار .

نقل الطبرى عن قتادة : « أن الله أقسم بهما لعظم شأنهما ، فهما آيتان عظيمتان يكورهما الله على الخلائق » .

وقال « أبو حيان » فى البحر المحيط : « أقسَمَ بالليلِ الذى فيه كلُّ حيوان يأوى إلى مأواه ، وبالنهار الذى تنتشر فيه » .

والتفت « ابن القيم » إلى اختلاف أحوال الليل والنهار فى أقسام القرآن ، وتأوله بأن

الله سبحانه يقسم بالليل فى جميع أحواله ، إذ هو من آياته الدالة عليه[١] .

وزاده الفخر الرازى تفصيلاً فقال : « اعلم أنه تعالى أقسم بالليل الذى يأوى فيه كل حيوان إلى مأواه ويسكن الخلق عن الاضطراب ويغشاهم النوم الذى جعله الله تعالى راحة لأبدانهم وغذاء لأرواحهم ، ثم أقسم بالنهار إذا تجلى لأن النهار إذا جاء انكشف بضوئه ما كان فى الدنيا من الظلمة وجاء الوقت الذى يتحرك فيه الناس لمعاشهم وتتحرك الطير من أوكارها والهوام من مكامنها ، فلو كان الدهر كله ليلاً لتعذرَ المعاشُ ، ولو كان نهاراً كله لبطلت الراحة ، لكن المصلحةَ فى تعاقبهما »[٢] .

ولا يكاد يخرج عنه ماذكره الشيخ محمد عبده فى سورتى الليل والضحى ، من (تفسير جزء عم) .

وهذا الكلام فى المصلحة من تعاقب الليل والنهار ، هو من قبيل الحكمة التى تتحقق فى كل ما خلقه الله ، وما من شىء خُلق عبثًا . والقرآن حين يقصد إلى أن يلفت إلى آيتى الليل والنهار ، فإنه يجلو وجه هذه الحكمة بمثل آيات :

« قل أرأيتم إن جعل اللهُ عليكم الليلَ سَرْمَدًا إلى يومِ القيامة مَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بضياء أفلا تسمعون » قل أرأيتم إن جعل اللهُ عليكم النهارَ سَرْمَدًا إلى يومِ القيامةِ مَنْ إلهٌ غيرُ الله يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه أفلا تبصرون » ؟ (القصص ٧١ ، ٧٢)

« ومن آياتهِ مَنامُكم بالليلِ والنهارِ وابتغاؤكم من فضلِه إن فى ذلك لآيات لقومٍ يسمعون » (الروم ٢٣)

« وهو الذى جعل لكم الليلَ لباسًا والنومَ سُباتًا وجعلَ النهارَ نشورا » (الفرقان ٤٧)

« وجعلنا الليلَ والنهارَ آيتين فمَحَوْنا آيةَ الليلِ وجعلنا آيةَ النهارِ مُبْصِرةً لِتبتغوا فضلاً من ربِّكم ولِتعلموا عددَ السنينَ والحسابَ ، وكُلَّ شىء فصَّلناه تفصيلاً » (الإسراء ١٢)

---

(١) التبيان فى أقسام القرآن : ص ٥ .

(٢) تفسير الرازى : ٨/سورة الليل .

« هو الذى جعل الشمسَ ضياءً والقمرَ نورًا وقدَّره منازلَ لتعلموا عددَ السنينَ والحسابَ ، ما خلق اللهُ ذلك إلا بالحقِّ ، يُفصِّلُ الآياتِ لقومٍ يعلمون ، إن فى اختلافِ الليلِ والنهار وما خلق اللهُ فى السمواتِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يَتَّقُون » (يونس ٦)

وانظر معها آيات : (الأنعام ٩٦ ، يونس ٦٧ ، النمل٨٦ ، آل عمران ١٩٠ ، الجاثية ٥) .

وليس على هذا النحو من بيان الحكمة ، تأتى آيات القسم بالواو بالليلِ وبالنهار التى عنى المفسرون بتأويل ما فى خلقها من حكمة وما فى تعاقبها من مصلحة .

غير ملتفتين إلى أن هذا التأويل حين يصدق على الليل مطلق الليل والنهار مطلق النهار ، فإن الليل والنهار فى سورة الليل مقيدان بالغشية والتجلى . وفى آيات أخرى يأتى القسم ، بالواو ، بالليل إذا سجى ، وإذا عسعس ، وإذا يَسْرِ ، وإذا وَقب ، وإذا أدبر . وبالفجر ، والصبح إذا أسفر ، وإذا تنفس ، والضحى .

ولابد أن يكون لكل قيد منها ملحظٌ فى الدلالة يختص به .

وإذا لم يتعلق البيان فى آيتى (الليل) بغير غشية الليل وتجلى النهار ، نلمح السر البيانى فيما تلفت إليه الواو من تقابُلٍ واضح محسوس ومدرَك ، بين غشية الليلِ بظُلماته ، وتجلِّى النهار بضيائه .

ومثله فى الوضوح ، التفاوتُ بين خِلقة الذكر والأنثى :

« وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى » .

تأولها المفسرون على احتمال أن تكون (ما) بمعنى مَن ، فيكون القسم بمن خلق الذكر والأنثى ، أو أن يكون « ما خلق » فى موضع المصدر ، أو على توهم المصدر ، فيكون المعنى : وخَلْقِ الذكرِ والأنثى ، ونظَّروا له بقول الشاعر :

تطوف العُفاةُ بأبوابهِ كما طاف بالبيعةِ الراهبِ

بجرِّ الراهبِ على توهُّم النطقِ بالمصدر ، أى كطوافِ الراهبِ بالبيعة .

والجرُّ هنا أقرب عندى إلى أن يُحمَلَ على المجاورة .

ولا يبدو لى وجه لهذا التنظير ، وفى الآية « ما » وليست فى الشاهد من قول الشاعر .

ثم اختلفوا فى المقصود بالذكر والأنثى :

ففى تفسير الرازى والبحر المحيط ، أنهما آدم وحواء ، أو هما كل ذكر وأنثى من بنى آدم ، أو من كل حيوان على اختلاف أنواعه ، ذكره وأنثاه .

والتفت ابن القيم إلى التقابل بين المقسم به فى آيتى (الليل) واتجه به إلى بيان وجه الإعظام ، قال :

« قابَلَ بين الذكر والأنثى ، كما قابل بين الليل والنهار . وكل ذلك من آيات ربوبيته ، فإن إخراج الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية ، كإخراج الذكر والأنثى فى الأجرام السفلية » .

على أنه عاد فربط بين هذه المتقابلات على وجه آخر ، هو أنه سبحانه « أقسم بزمانِ السعى وهو الليل والنهار ، وبالساعى وهو الذكر والأنثى ، على اختلاف السعى كما اختلف الليل والنهار والذكر والأنثى ، وسعيه وزمانه مختلف وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه » .

وهذا على قُربه ، لا يبدو متصلاً بما ذكره آنفاً من أجرام علوية وسفلية .

* * *

ونركز اهتمامنا على تدبر ما يسيطر على السورة كلها من ملحظ التقابل والتفاوت ، يبدأ باللفت إلى ما هو حِسى مدرَك فى تفاوتٍ ما بين غشية الليل وتجلى النهار ، وخِلقة الذكر والأنثى ، توطئةً إيضاحية لبيان تفاوتٍ مماثلٍ فى سعى الناس : بين من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، ثم تفاوت الثواب والعقاب فى الأخرى : بين الأشقى يصلى ناراً تلظى ، والأتقى الذى يُجنبها بما ابتغى وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى .

فعلى نحوِ ما يتفاوتُ الليلُ إذا يغشى بظلماته ، والنهارُ إذا تجلى بضيائه يتفاوت سعىُ الناسِ فى الدنيا بين ضلال وهدى :

« إنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى » .

والسعى فى اللغة المشى ، لُحِظ فيه أن الساعى يبتغى عملاً أو يتجه إلى مقصد يدأب فيه ، فكان السعى بمعنى العمل مع القصد والدأب .

وفى الاستعمال القرآنى للمادة ، نجد الدلالة الأولى للسعى بمعنى المشى والحركة ، على الحقيقة أو التخييل والمجاز ، فى آيتى (طه) عن عصا موسى ألقاها « فإذا هى حية تسعى » وحبال السحَرة وعصيهم ألقوها « يُخَيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى » وفى آيتى التحريم والحديد ، فى نور المؤمنين « يسعى بين أيديهم » يوم القيامة .

كما نجد دلالة السعى على العمل مع الدأب فى آيات :

« فمن يعملْ من الصالحاتِ وهو مؤمنٌ فلا كُفرانَ لسعيِه »
(الأنبياء ٩٤)

« ومن أراد الآخرةَ وسعى لها سَعْيَها وهو مؤمنٌ فأولئك كان سعيُهم مشكورا » (الإسراء ١٩)

« قل هل نُنَبِّئُكم بالأخسَرينَ أعمالا ، الذين ضَلَّ سَعْيُهُم فى الحياةِ الدنيا وهم يَحسَبُون أنهم يُحسِنون صُنعا » (الكهف ١٠٤)

ودلالة القصد أوضح فى آيات :

« ومَنْ أظلمُ ممن منع مساجدَ اللهِ أن يُذكَرَ فيها اسمُه وسَعى فى خرابها »
(البقرة ١١٤)

« ويسعَوْن فى الأرض فساداً » (المائدة ٣٣ ، ٦٤)

وواضح أن السعى فى آية الليل ، هو من العمل الكسبى مع القصد والدأب ، ومثله السعى فى آيات (الإنسان ٢٢ ، النجم ٤٠ ، الغاشية ٩) .

وأصل الشتّ فى اللغة التفرقُ والاختلاف ، ماديًّا ومعنويًّا ، وقد سبق استقراء آياته فى القرآن ، فى تفسير آية الزلزلة « يومئذ يصدر الناس أشتاتاً »[1] فهدى إلى أن أشتاتا تأتى بدلالة التفرق المقابل للتجمع . أما شتى ، فمن الاختلاف والتباين .

* * *

ولا نحتاج إلى تأول مقصد القرآن الكريم بتباينِ سعيكم ، فقد تولت الآياتُ بعده بيانه :

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى » .

---

(١) التفسير البيانى : الجزء الأول .

وهذا هو تفاوتُ السعى ، يأتى بعد أن مهد له اللفتُ إلى التفاوت المدرَك بالحس ، بين غشية الليل وتجلى النهار ، بين خلقة الذكر وخلقة الأنثى .

والحسن فى اللغة الجمال ، ويغلب استعماله فى الماديات نقيضًا للقبح وفى المعنويات مقابلاً للسوء . والحسنى ضد السوأى ، صيغتا تفضيل للدلالة على غاية الحسن الذى لا حُسن بعده ، والسوء الذى لا يماثله سوء .

وفرق الراغب فى (المفردات) بين الحسن والحسنة والحسنى ، فقال إن الحسن يستعمل فى الأعيان وفى الأحداث ، وكذلك الحَسنة إذا كانت وصفاً ، أما إذا كانت اسمًا ففى الأحداث . والحسنى لا تستعمل إلا فى الأحداث[1] .

وأكثر ما جاء فى القرآن من الحسن ، فللمستحسَن من جهة العقل والبصيرة والشرع ، لا من جهة الحِس .

وقد تأول المفسرون الحسنى بحسن العاقبة ، وبالإيمان بوحدانية الله وبما يخلفه الله تعالى على المُنفِق .

وهى وجوه متقاربة ، وربما كان حسنُ العاقبة يؤديها جميعاً ، إذ فيه معنى الإيمان بالله ، والتصديق بالخلف .

ولم تحدد الآياتُ ماذا أعطى التقىُّ ، ومن اتقى ، وبم بخل البخيل ، وعَمَّ وعمَّن استغنى ؟

ونذهب مع أبى حيان فى فهم حذف مفعولى أعطى « بأن المقصود الثناء على المعطى دون تعرض للمُعطَى والعطية ، وظاهرُه بذلُ المال فى واجبٍ ومندوبٍ ومكرمة »[2] .

فالإعطاء فى الآية ، مقابَل بالبخل ، وكلّ بخل فى القرآن يتعلق بالمال وبما آتى اللهُ من فضل ، باستقراء مواضع وروده فى المصحف وعددها أحد عشر موضعاً ، ستة منها متلوة بغنى اللهِ ، والله الغنىُّ وأنتم الفقراء ، ولله ميراث السموات والأرض ، فإن الله هو الغنى الحميد .

---

(١) مفردات القرآن : مادة حسن .

(٢) البحر المحيط : ٤٨٣/٨ .

وإنه لكذلك ، الإعطاءُ للمال والبخل به ، فى آيتى الليل :

« فأما من أعطى واتقى » .

« وأما من بخل واستغنى » .

بشاهدٍ من النص بعدهما :

فيمن بخل : « وما يغنى عنه ماله إذا تردى »

وفيمن أعطى : « الذى يؤتى ماله يتزكى » .

وإعطاءُ المال أو البخل به ، إنما يكونان فيما يجب أن يُنفَقَ فيه المالُ من وجوه الخير ، وأداء حق الله فيه إلى من يستحقونه ، زكاةً وصدقة وبِرًّا ، على ما هو بيِّنٌ من تدبُّر الاستعمالِ القرآنى للمال والأموال[١] .

* * *

وللمفسرين فى مفعول « اتقى » ثلاثة أقوال :

ففى قول عن ابن عباس أنه : « اتقى البخلَ »

ويرد عليه أن لفظ « أعطى » قبله يفيد هذا المعنى ، كما أن السياق بعده ، يأتى بالبخل وبالتكذيب فى مقابل الإعطاء والاتقاء ، مما يبعد أن يكون اتقى بمعنى اتقى البخل .

والقولان الآخران هما : اتقى اللهَ ، أو اتقى الحسابَ والعذاب .

والوجهان متقاربان ، فمن اتقى الله اتقى عذابَه فى الآخرة ، ولا يتقى الحسابَ والعذابَ إلا من اتقى الله .

والوقاية فى الأصل الحفظُ مما يضر ويؤذى ، ومنه فى القرآن آية (النحل ٨١) وجاءت التقوى فى تجنب الإثم والمعصية ، ابتغاء مرضاة الله ووقاية من غضبه وعذابه .

ويهدى تدبر استعمال القرآن للاتقاء ، أنه يذكر المفعول دائماً مع فعل الأمر . وقد جاء ثلاثَ مراتٍ خطاباً للواحد والمتَّقَى هو الله ، وخطاباً للجمع (اتقوا) نحو سبعين مرة : خمس منها فى اتقاء النار ، وعذاب الآخرة ، ويومَ ترجعون فيه إلى الله ، لا تجزى نفس عن نفس شيئاً .

---

(١) انظر : « من هدى القرآن ، فى أموالهم » للأستاذ أمين الخولى ، ط دار المعرفة .

ومرتان فى اتقاء فتنةٍ ، واتقاء ما بين أيديكم .

والمُتَّقَى فى بقية الآيات ، هو الله سبحانه .

وأما الفعل الماضى والمضارع ، فقد يمسك فيهما عن ذكر المفعول به ، وحين يصرح به فالمتَّقى هو الله سبحانه وتعالى .

وهذا الاستقراء يؤذن بأن الاتقاء فى القرآن يغلب أن يكون اتقاء اللهِ واتقاء حسابه وعقابه .

ومن المهم أن نشير إلى أن التقوى ، كالخشوع ، من أفعال القلوب . بمعنى أنها لا تكون إلا فى القلب ومن القلب ؛ فالعبرة بتقوى القلوب ، وهو ما يبدو بوضوح فى مثل آيات :

« ذلك ومَن يُعظِّمْ شعائرَ اللهِ فإنها من تقوى القلوبِ » (الحج ٣٢)

« لن ينالَ اللهَ لحومُها ولا دماؤها ولكنْ ينالُه التقوى منكم »
(الحج ٣٧)

« أولئك الذين امتحن اللهُ قلوبَهم للتقوى ، لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيم »
(الحجرات ٣)

« وتناجَوْا بالبِرِّ والتقوى واتَّقُوا الله الذى إليه تُحْشَرون » (المجادلة ٩)

وجاءت التقوى نقيضًا للفجور فى :

« ونفسٍ وما سَوَّاها ، فألهمها فُجورَها وتقواها » (الشمس ٨)

« أم نجعلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ كالمفسدين فى الأرضِ أم نجعلُ المتقين كالفُجَّارِ » (ص ٢٨)

* * *

والصدق فى الأصل : مطابقة القول للواقع أو لما فى الضمير . ويستعمل فى صدق الفعل ، وصدق النية والعقيدة . وأكثر ما يكون التصديق فى القرآن الكريم بمعناه الدينى فى التصديق باللهِ وآياته ورُسلِه وكلماته ، ولقائه . . .

و « الحسنى » جامعة لكل ما قال المفسرون فى تأويلها : الخلف فى الدنيا والآخرة ، والجنة والثواب ، والتوحيد . . .

وإن كان الأَوْلى إطلاقَها لِتَعُمَّ فلا تختص بوجهٍ من هذه الوجوه .

واليسر ضد العسر ، وقد سبق استقراء آياتهما فى (سورة الشرح) بالجزء الأول من هذا الكتاب .

وفسروا الآية بأنها التهيئة للحالة التى هى أيسر على المصدق بالحسنى ، فى الدنيا والآخرة .

وقال الزمخشرى : « سَمَّى طريقَة الخيرِ باليسرى لأن عاقبتها اليسر ، كما سمى طريقة الشر العسرى لأن عاقبتها العسر ، أو أراد بهما طريق الجنة والنار ، أى : فسنهديهما فى الآخرة للطريقين » .

والتيسير لليسرى هو وعدُ الله للباذلين المعطِين المتقين ، ولم تأت « اليسرى » فى القرآن إلا مع التيسير مسنداً إلى الله جل جلاله ، وذلك فى آيتين :

آية الأعلى : « ونيسرك لليسرى » خطاباً للمصطفى عليه الصلاة والسلام .

وآية الليل فى « من أعطى واتقى وصدق بالحسنى » . تأتيه البشرى بمثل ما بُشِّر به المصطفى عليه الصلاة والسلام ، من تيسيرٍ إلهى لليسرى .

أما العسرى فلم تأت بهذه الصيغة إلا فى آية (الليل) ، وإن جاء العسر مقابلاً لليسر فى آيات (البقرة ١٧٥ ، والطلاق ٧ ، والشرح ٥ ، ٦) كما جاءت صيغتا عَسِر وعسير ، صفةً ليوم القيامة بخاصة ، فى آيات (القمر ٨ ، المدثر ٩ ، الفرقان ٢٦) وهذا الاختصاص يجلو حِسَّ البيان القرآنى للعسر الذى استعملته العربية فى قديمها الجاهلى اسمًا لقبيلة من الجنِّ أو أرض يسكنونها . ثم قيل العَسِرُ للشكسِ الشرِس ، وللأنثى عَسُرَ ولادُها . واعتسارُ الفرس ركوبُه قبل ترويضه .

وغير مقبول قولُ من قال إن « العسرى » جاءت فى آية الليل لمجرد رعاية الفاصلة ، فما يجوز فى البيان العالى التعلق بملحظٍ شكلى فى اللفظ لا يقتضيه المعنى .

وقال « الزمخشرى » فى التيسير للعسرى : فسنخذله ونمنعه الإلطاف حتى تكون الطاعة أعسر شىء عليه وأشد . ولمح « أبوحيان » فى هذا التأويل « دسيسة اعتزال »[1] .

وقلما يفرق المعجميون فى الدلالة بين العسر والعسرى حين يسوقونها سرداً فى مُصادر

---

(١) البحر المحيط : ٤٨٣/٨ .

الفعل عسر. مع أن العربية تغير من صيغ المصدر لملحظ خاص فى الدلالة ، كالرأى والرؤيا والرؤية : مصادر رأى ، والوجود والوجد والموجدة والوجدان : مصادر وجد ، والسعى والمسعى والسعاية : مصادر سعى .

ونرى أن استعمال العسرى ، كاستعمال اليسرى ، ليس ملحوظاً فيه المصدرية كالعسر واليسر ، وإنما الملحوظ فيهما ، بصيغة الفُعْلَى ، أقصى اليسر وأشد العسر ، أو هما اليسر الذى لا يسر مثله ، والعسر الذى ما بعده عسر. ونظيرهما فى القرآن من غير المادة : البطشة الكبرى ، والنار الكبرى .

واستعمال التيسير مع العسرى ، مبالغة فى الوعيد والتذير لمن بخل واستغنى . وقد نظَّر له « الراغب » فى (المفردات) بقوله تعالى :

« فبشرهم بعذاب أليم » والآية وعيد للذين يكنِزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله . (التوبة ٣٤)

ومثلها آيات : (النساء ١٣٨ ، والتوبة ٣ ، ولقمان ٧ ، والجاثية ٨ ، وآل عمران ٢١ ، والانشقاق ٢٤)

وفيها التبشير بعذاب أليم ، للمنافقين ، والكفار ، والمستكبرين ، والباغين . كالتيسير للعسرى : مبالغة فى الردع والنذير لمن بخل واستغنى .

* * *

« وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى » .

سبق استقراء آيات الغنى فى القرآن ، فى تفسير آية الضحى « ووجدك عائلا فأغنى » [1] ، وقد هدَى إلى الفرق بين الغنى والثراء ، إذ يغلب أن يكون الغنى غنى النفس وإن لم يوجد المال ، ولا يكون الثراء إلا بالمال ، ما لم يُستعمل مجازيًّا .

والردَى فى اللغة الهلاك ، ومن استعمالاته الحسية الأولى : الرداة الصخرة ، ورداه وأرداه رماه بها وصدمه ، وتردَّى فى البئر سقط . ثم استُعمل فى مطلق الهلاك .

---

(١) فى سورة الضحى ، من الجزء الأول للتفسير البيانى .

و « تَرَدَّى » فى القياس الصرفى مطاوع الفعل أردى ، بمعنى أهلك وأوقع فى الردى .

وفى القرآن الكريم : يأتى الفعل الثلاثى لازمًا غير متعد فى آية :

« إن الساعةَ آتيةٌ أكادُ أخفيها لتُجزَى كلُّ نفسٍ بما تسعى ، فلا يَصُدَّنكَ عنها مَن لا يؤمن بها واتَّبع هواه فتَرْدَى » (طه ١٦)

وجاء الفعل الرباعى متعديا ، فى آيات :

« وذلكم ظنُّكم الذى ظننتم بربِّكم ، أرداكم فأصبحتم من الخاسرين »
(فصلت ٢٣)

فاطَّلع فرآه فى سَوَاء الجحيم ، قال تاللهِ إنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ »
(الصافات ٥٦)
و(الأنعام ١٣٧)

وجاء التردى ، بصيغة اسم الفاعل « المتردية » فى آية (المائدة ٥) وفعلاً ماضياً فى آية الليل .

وهذا هو كل ما فى القرآن من المادة .

وبه نستأنس فى فهم قوله تعالى : « وما يغنى عنه ماله إذا تردى » بأنه التردى فى مهواة الهلاك .

وقول الطبرى : « إنه التردى فى جهنم لأن ذلك هو المعروف من التردى » أقربُ إلى المعنى والسياق من قول قوم ، فيما نقل أبو حيان[1] « بأنه التردى بالأكفان » أخذوه من الرداء ، ونظَّروا له بقول « مالك بن الريب » :

وخُطَّا بأطرافِ الأسِنَّة مضجعى ورُدًّا على عينىَّ فضلَ ردائيا

وقول الآخر :

نصيبُك مما تجمعُ الدهرَ كلَّه رداءان تُلَوى فيهما وحنوطُ

وهذا التأويل بعيد من سياق النذير فى آية الليل ، لأن التردى برداء الكفن لا يختص به كافر دون مؤمن .

---

(١) البحر المحيط : ٨/٤٨٢ .

وفى التوجيه الإعرابى للآية ، جوَّزوا أن تكون (ما) فيها نافية ، وأن تكون استفهامية .

والنفى عندنا أولى ، لما فيه من ملحظ التقريرِ لعدم غنى المال عن البخيل المكذِّب ، إذا تردى .

* * *

« إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى . وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى » .

الهدى الإرشاد إلى الطريق المستقيم ، وأكثرُ ما يجىء فى القرآن الكريم ، نقيضًا للضلال والكفر .

والآخرة والأولى فى الاستعمال اللغوى النهاية والبداية ، أو المصير والمبتدأ ، ملحوظًا فيهما الإتيان فى الآخر ، وفى الأول .

وتأتى الآخرة والأولى فى المصطلح الدينى بمعنى الحياتين الآخرة والدنيا . والأول والآخر من أسماء الله تعالى الحسنى[1] .

وفى آية الليل ، فسر « الطبرى » الآخرة والأولى ، بأن « لنا ملك ما فى الدنيا والآخرة ، نُعطى منهما من أردنا من خلقنا ونحرم من شئنا . وإنما عنى بذلك جل ثناؤه أنه يوفق لطاعته مَن أحب من خلقه فيكرمه بها فى الدنيا ويهيئ له الكرامة والثواب فى الآخرة . ويخذلُ من شاء خذلانه من خلقه عن طاعته ، فيهينه بمعصيته فى الدنيا ويخزيه بعقوبته فى الآخرة » .

واقتصر فيهما الزمخشرى فى (الكشاف) على ثواب الدارين للمهتدى .

ومثله « أبو حيان » فى (البحر المحيط) .

ونقل الرازى قول من قالوا فى تأويل الآية : « إن لنا كل ما فى الدنيا والآخرة فليس يضرنا تركُكم الاهتداء بهدانا ، ولا يزيد فى ملكنا اهتداؤكم ، بل نَفْعُ ذلك وضره عائدان عليكم ، ولو شئنا لمنعناكم من المعاصى ، إذ لنا الدنيا والآخرة » .

---

(١) فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، سبق استقراء آيات الهدى والضلال والآخرة والأولى فى آيتى الضحى ، « ولَلآخرة خير لك من الأولى » – « ووجدك ضالا فهدى » – وفى آية النازعات : « فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » .

ورأى فيه ما يُخِل بالتكليف .

كما نقل ما ذكرنا من تأويل الطبرى ، وصرح بأن هذا الوجهَ من التأويل أوفقُ لقوله .

ونرى أن قصر معنى الآية فى تفسير الزمخشرى على « ثواب الدارين » يمنعه العمومُ المستفاد من صريح السياق فى البشرى والنذير معاً .

ودون خوض فى مشكلة الجبر والاختيار ، نطمئن فى الآية إلى أن الله سبحانه إليه المصير كما له المبتدأ . وهو تعالى يهيئ لخلقه فى الدنيا طريق الحق والهدى ، وبقدر ما يستجيبون لداعى الهدى أو يصدون عنه ، تكون النهاية والمصير إلى الخالق فى الآخرة .

ونلتفت إلى ملحظ بيانى فى الآية ، هو العدول عما هو مألوف من تقديم الأولى على الآخرة . وليس التعلق برعاية الفاصلة هو الذى اقتضى تقديم الآخرة هنا على الأولى ، وإنما اقتضاه المعنى فى سياق البشرى والنذير ، إذ الآخرة خير وأبقى وعذابها أكبر وأشد وأخزى وأبقى ، وأن الآخرة هى دار القرار .

وكذلك قُدّمت الآخرة على الأولى فى سياق البشرى للمصطفى عليه الصلاة والسلام ، بآية الضحى :

« ولَلآخرة خيرٌ لك من الأولى » .

كما قدمت الآخرة على الأولى فى سياق الوعيد لفرعون إذ أدبر وتولى : « فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » بآية النازعات .

* * *

وفى مثل هذا السياق من الوعيد ، تتقدم الآخرة على الأولى فى آية الليل ، متلوة بهذا النذير :

« فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى » .

واللظى فى العربية اللهب الخالص ، والتلظّى تَسَعُّر النار واحتدامُ توقُّدها .

وفى الاستعمال القرآنى جاءت « لظى » للجحيم فى آية المعارج ١٥ :

« كلاَّ إنها لَظَى ، نزاعةً للشَّوَى ، تدعو مَنْ أدبر وتَوَلَّى ، وجَمَع فأوْعَى » .

والإنذار بنارٍ تلظَّى ، فى آية الليل ، عام كالعموم المستفاد من الآية قبله : « إن سعيكم لشتى » .

ثم تأتى الآية بعده فتخص مَن يصلاها ، وهو – كما فى آية المعارج – مَن كذّب وتولى :

« لاَ يَصْلاَهَا إلاَّ الأَشْقَى ، الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى » .

قيل فى تفسير « لا يصلاها » : « معناه لا يصطلى بها إلا الأشقى »[1] .

وهو مالا يطمئن إليه حِس العربية فى استعمالها الصلىَّ للشئ فى النار أو بها : صلى اللحمَ صليًّا ألقاه فى النار وشواه . وصليَ النارَ وبالنار : قاسى حرَّها ولهيبَها . وينقل مجازيًّا إلى : صلى نار الحرب .

أما الاصطلاء فقلما يُستعمل إلا فى التماس الدفء من النار ، على وجه التخصيص .

وهذا الفرق بين الصلى والاصطلاء ، هو ما يهدى إليه البيان القرآنى ، حين يستعمل الاصطلاء فى الدفء بخاصة ، فى قول موسى لأهله حين آنس ناراً :

« امكثوا إنى آنستُ نارًا لَعَلِّى آتيكم منها بخَبرٍ أو جَذْوةٍ من النارِ لعلكم تَصْطَلون » (القصص ٢٩ ، النمل ٧)

على حين يأتى الصلى والتصلية ، فى التعذيب بالنار ومقاساة حرِّها ولهيبها ، باستقراء مواضع استعمالها بالقرآن الكريم ، وعددها ثلاثة وعشرون .

ويختص الصلى فيها جميعاً ، فعلاً ومصدراً واسمَ فاعل ، بنارِ الجحيم .

وعيداً للكافرين والمكذبين والمغرورين المفتونين بالمال والجاه والبنين ، فهم صالو الجحيم ، يَصْلَون سعيراً ، وسَقَرَ ، والنارَ الكبرى ، وناراً ذاتَ لهب ، جهنم يصْلَونها وبئس القرار ، فبئس المهاد ، فبئس المصير .

وبهذا كله نستأنس فى فهم « لا يصلاها إلا الأشقى » فلا يكون بمعنى الاصطلاء

---

(١) مفردات الراغب – مادة : صلى .

الذى يحمل دلالة الاستدفاء ، وإنما هو الصلى بمعنى الشىّ والتعذيب باللهبِ المستعر فى الجحيم .

* * *

والشقاء لغةً نقيضُ السعادة . وأصل استعماله فى الشدة والعسْر ، والشاق من الجبال الحادُّ الميْل الطويل .

وحين تستعمل العربية الشقاء فى التعب ، فإن ذلك يكون بملحظٍ من الشدة والعسر ، دون أن يترادف الشقاءُ والتعب ؛ وهو ما نبه إليه « الراغب » بقوله فى المفردات : كل شقاوة تعبٌ ، وليس كلُّ تعب شقاوة .

ويأتى الشقاء فى الاستعمال القرآنى خاصًّا بمحنة الضلال ، إما بصريح اللفظ كما فى آيتى :

« فمن اتَّبع هُداىَ فلا يَضِلُّ ولا يَشقى » (طه ١٢٣)

« قالوا ربّنا غَلَبتْ علينا شِقوتُنا وكنا قوماً ضالين » (المؤمنون ١٠٦)

وإما بدلالة السياق كما فى الآيتين :

« يومَ يأتِ لا تَكَلَّمُ نفسٌ إلا بإذنِه فمنهم شقىٌّ وسعيد » فأما الذين شَقُوا ففى النارِ لهم فيها زفيرٌ وشهيق » . (هود ١٠٥ ، ١٠٦)

وليس بعيداً من معنى الضلال ، عصيانُ أمر الله ، فى قوله تعالى خطاباً لآدم وزوجه :

« فلا يُخرجنّكما من الجنة فتشقى » وآيات مريم :

« ولم أكن بدعائك ربِّ شقيًّا » .

« ولم يجعلنى جباراً شقيًّا » .

« عسى ألا أكونَ بِدُعاء ربى شقيًّا » .

وجاءت صيغة « أشقى » فى ثلاثِ آيات ، آية الشمس :

« كذبت ثمود بطغواها » إذ انبعث أشقاها » .

والإضافة تقيده بالمضاف إليه ، فهو أشقى ثمودَ وأضلُّها وأطغاها .

والأشقى ، معرفة بأل ، فى آيتى الأعلى والليل ، والسياق فيهما متشابه ، وعدم

الإضافة فيها يُطلق « الأشقى » من كل قيد ، فلا مجال لمفاضلة بين أى شقى ، وهذا الأشقى : « الذى يَصْلَى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيى » .

ناراً تلظى « لا يصلاها إلا الأشقى » .

* * *

والأشقى فى آية الليل : « الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى » .

الكذب فى العربية ، عدم مطابقة القول للواقع أو لما فى الضمير ، ومنه الآية فى إخوة يوسف : « وجاءوا على قميصِه بدم كَذِبٍ » . ويستعمل فى إخلاف الظن والرجاء .

والتكذيب نقيض التصديق . ولا يأتى التكذيب فى الاستعمال القرآنى ، إلا بالمعنى الدينى فى التكذيب بالله وآياته وآلائه ورسالاته ورسله ، ولقائه ، واليوم الآخر .

والتولى : الإعراض والإدبار .

وقد جاء قريناً للكفر والتكذيب ، مع مثل هذا الوعيد بالعذاب ، فى آيات :

« لستَ عليهم بِمُصَيْطِرٍ ، إلا من تولَّى وكفر ، فيعذبه اللهُ العذابَ الأكبر » (الغاشية ٢٢)

ومعها آيات :

« فلا صَدَّقَ ولا صلى ، ولكن كَذَّب وتولى » (القيامة ٣٢)

« إنا قد أوحِىَ إلينا أن العذابَ على من كَذَّب وتولى » (طه ٤٨)

« كلا إنها لَظَى ، نزاعةً للشوَى ، تدعو مَنْ أدبر وتَوَلَّى » (المعارج ١٥)

والإدبار فيها إعراض وصدٌّ عن الحق .

* * *

« وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ، الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى » .

تنفرد الآية هنا بصيغة « الأتقى » معرفة بأل ، وجاء أتقى مضافاً إلى ضمير المخاطَبين ، الناس ، فى آية الحجرات :

« إن أكرمَكم عند الله أتقاكم » .

فقُيِّد بهذه الإضافة إلى ضمير الناس المخاطَبين ، لا على الإطلاق فى « الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى » .

وأصل الزكاة فى اللغة النمو ، ومنه زكا الثمر بمعنى طاب حين ينضج ويؤتى أُكُله . ويستعمل فى المعنويات بملحظ من الخير والبركة .

وزكّى الشيء أو الشخص شهد له بالخير والصلاح والتقوى ، ومنه فى القرآن الكريم آية النجم ٣٢ :

« فلا تُزَكُّوا أنفسَكم هو أعلمُ بمن اتقى » .

والتزكية أيضاً التهذيب والتطهير ، ومنه فى القرآن الكريم آيتا آل عمران ١٦٤ ، والجمعة ٢ :

« يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » .

وقد نُقلت الزكاة إلى المصطلح الشرعى فيما يؤتيه المؤمن من ماله فريضةً ، فيزكو المال ببركة الله وثوابه .

وتأتى صيغة الزكاة فى القرآن الكريم خاصة بالفريضة ، فى كل مواضع ورودها وعددها اثنان وثلاثون موضعًا .

وفى المال أيضًا جاء فعلُ التزكية بآية التوبة ١٠٣ :

« خذ من أموالهم صدقة تُطهرهم وتزكيهم بها » .

ومثله التزكي فى آية الليل ، مع إيتاء المال .

والإيتاءُ هو البذل .

وأصله فى اللغة الإعطاء مع سهولة ويسر : فالأَتِيُّ السيلُ . وتأتّى الأمرُ سَهُلَ وتهيأ ، ومأتاه جهتُه التى يسهل إتيانه منها . وآتت الشجرةُ أُكُلَها أعطته فى يسر وسخاء ، ومنه فى القرآن الكريم آية البقرة ٢٦٥ :

« ومثَلُ الذين ينفقون أموالَهم ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ وتثبيتاً من أنفسِهم كمثَلِ جنَّةٍ بربوةٍ أصابها وابلٌ فآتتْ أُكُلها ضِعفين » .

ومعها آيات (الرعد ٣٥ ، وإبراهيم ٢٥ ، والكهف ٣٣) .

والملحظ اللافت فى البيان القرآنى ، أنه إذ يعلق الزكاة مرةً واحدة بفاعِلين فى آية المؤمنين ٤ :

« والذين هم للزكاة فاعلون » .

يجيء بها فى سائر الآيات مع الإيتاء ، مصدراً .

* وإيتاء الزكاة * فى آيتى (النور ٣٧ ، والأنبياء ٧٣)

واسم فاعل فى آية النساء ١٦٢ : * والمؤتون الزكاة *

وفعلاً ماضياً : * وآتى الزكاة * فى آيات (البقرة ١٧٧ ، والتوبة ١١ ، ١٨ ، والنور ٥٦) .

* وآتوا الزكاة * فى آيات (البقرة ٤٣ ، ٨٣ ، ١١٠ ، ٢٧٧ ، والنساء ٧٧ ، والتوبة ٥ ، ١١ ، والحج ٤١ ، ٧٨)

* وآتيتم الزكاة * فى (المائدة ١٢ ، والروم ٣٩) .

وكذلك الفعل المضارع وفعل الأمر ، فى كل مواضع استعمالها .

وبكل هذه الآيات نستأنس فى فهم الآية : « الذى يؤتى ماله يتزكى »

بملحظٍ من دلالة الإيتاء على يُسْرِ الإعطاء وسماحة البذل .

وفى الصنعة الإعرابية قالوا : إن جملة « يتزكى » على النصب فى موضع الحال . وأجاز الزمخشرى ألا يكون لها موضع من الإعراب ، لأنه جعل يتزكى بدلاً من صلة الموصول فى « الذى يؤتى » .

وهو كما لاحظ « أبو حيان » إعراب متكلف .

والحالية عندنا أولى بالمقام .

* * *

« وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِعْمَةٍ تُجْزَى » .

تعلق بعض المفسرين بالصنعة البديعية فى مجيء * تُجْزَى * على البناء للمجهول . فحملوه على مجرد رعاية الفاصلة . قال أبو حيان :

« وجاء تُجْزَى مبنيًّا للمفعول لكونه فاصلة ، وكان أصله : نَجْزِيه إياها أو نجزيها إياه »[1] .

وهذا ملحظ شكلى من الزخرف البديعى لا نقول بمثله فى البيان الأعلى ، وإنما جاء البناء للمجهول لمقتضى معنوى ، وهو أن البذل هنا لم يكن عن قصد جزاء لأحد أو من أحد ، على الإطلاق ، وإنما هو خالص لوجه الله تعالى .

---

(١) البحر المحيط : جـ ٨/٤٨٤ .

وواضح من الآية أن هذا المال المبذول ، لم يؤته الذى يتزكى جزاء على نعمةٍ سبقت لأحدٍ عنده ، أو ابتغاء نعمة لأحد يجزيه بها على هذا البذل . لكن من المفسرين – فيما نقل الإمام الطبرى – من وَجهها على خلاف هذا ، فتأول الآية : وماله عند أحد فيما أنفق من نعمة يلتمس ثوابها وجزاءها .

وليس الأوْلَى ، فصريح النص « وما لأحد عنده » لا يأذن بتأويله على قولهم : وما له عند أحد .

« إلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى . وَلَسَوْف يَرْضَى » .

القراءة بنصب ابتغاء ، هى قراءة الجمهور .

والنصب فيه عندهم ، إما على الاستثناء ، أو مفعولاً لأجله كما ذهب « الفراء » و « الزمخشرى » فى الكشاف . ويؤنس إليه غلبةُ مجىء ابتغاء ، مفعولاً لأجله فى الآيات التى استعملت هذه الصيغة على النصب .

وأما القراءة بالرفع ، فتأولوه فيها على البدَلِ من نعمةٍ ، وهى فى الصنعة الإعرابية فى موضع رفع ، وحرفُ الجر قبلها زائد (البحر المحيط) .

والابتغاء فى اللغة ، التماس بغية يجتهد فى طلبها .

ويكون فى الشر بملحظٍ من البغى والعدوان وتجاوز الحد . ومنه فى القرآن الكريم ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله (التوبة ٤٨ ، وآل عمران ٧) والعدوان (المؤمنون ٧ ، والمعارج ٣١) وابتغاء عَرَضِ الحياة الدنيا (النساء ٣٤ ، والرعد ١٧) .

ويكون الابتغاء فى الخير ، بملحظ من الدأب فى التماسه والاجتهاد فى طلبه ، وهو ما يبدو بوضوح فى آيات السعى فى البَرِّ والبحر ابتغاء فضل الله ورزقه :

(النحل ١٤ ، والإسراء ١٢ ، ٦٦ ، والقصص ٧٣ ، والروم ٢٣ ، ٤٦ ، وفاطر ١٢ ، والجاثية١٢ ، والمزمل ٢٠ ، والجمعة ١٠) .

كما يبدو ملحظُ الدأب فى العبادة ، والجهاد ، ابتغاء فضل الله ورضوانه فى مثل آيات :

« تراهم رُكَّعًا سُجَّدًا يبتغون فضلاً من اللهِ ورضوانًا » (الفتح ٢٩)

« إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى » (الممتحنة ١)

« للفقراء المهاجرين الذين أخرِجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من اللهِ ورضواناً وينصرون اللهَ ورسوله أولئك هم الصادقون » (الحشر ٨)

ومثله الدأب فى الخير ، إنفاقاً للمال وسعيًا فى معروف وإصلاحٍ بين الناس ابتغاء مرضاة الله ، كالذى فى آيات :

« لا خيرَ فى كثيرٍ من نجواهم إلا مَنْ أمَرَ بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعلْ ذلك ابتغاء مرضاةِ اللهِ فسوف نؤتيه أجراً عظيمًا » (النساء ١١٤)

ومعها آيات : (البقرة ٢٦٥ ، ٢٧٢ ، والرعد ٢٢) .

ولا مجال للخوض هنا فيما تعلق به المجسِّمة من لفظ « وجه » وما حفلت به كتب الكلاميين من تأويل له ، وإنما نوجه همَّنا إلى التفسير البيانى ، فنقول :

الوجه فى اللغة ما يستقبلك من كل شىء ، وأكثر ما يستعمل حسيًّا للوجه المعروف من الجسم . ومنه فى القرآن الكريم ، آيتا يوسف ٩٣ ، ٩٦ :

« اذهبوا بقميصى هذا فألقُوه على وجه أبى يأتِ بصيراً » .

« فلمَّا أنْ جاء البشيرُ ألقاه على وجهِه فارتدَّ بصيراً » .

وآية الذاريات فى حديث إبراهيم :

« فأقبلتْ امرأتُه فى صَرَّةٍ فصكَّت وجْهها وقالت عجوزٌ عقيم » ٢٩ .

وآيات الوضوء : « فاغسلوا وجوهَكم »

والتيمم : « فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه » (المائدة ٧)

والقبلة : « فَوَلِّ وجهك شطرَ المسجدِ الحرامِ ، وحيثما كنتم فولُّوا وجوهَكم شطرَه » (البقرة ١٤٤)

والعربية تطلق الوجهَ ، مراداً به الذاتُ . من حيث كان الوجه هو الذى يميز الشخص ويحدد ملامحه . ومنه جاء استعمالُ الوجوهِ لأعيان القوم .

ويلحظ من كون الوجه هو أول ما يُستقبل من الجسم ، جاء الوجه بمعنى القصد والاتجاه .

وقد جاء « وجه » مضافاً إلى الله سبحانه فى إحدى عشرة آية من القرآن الكريم ، ثمان منها فيما ينفق المؤمنون ابتغاء وجه الله ، وفى المتقين من عباده يريدون وجهَه تعالى . وآيات :

« ولله المشرقُ والمغرب فأينما تُوَلُّوا فثَمَّ وجهُ اللهِ » (البقرة ١١٥)

« كلُّ من عليها فانٍ * ويبقى وجهُ ربِّك ذو الجلالِ والإكرام »
(الرحمن ٢٧)

« لا إله إلاَّ هُوَ كلُّ شىء هالكٌ إلا وجهَه » (القصص ٨٨)

قيل فى تأويلها إن لفظ وجه « فى كل هذا زائد ، والمعنى : فثَم الله ، كل شىء هالك إلا هو ، وابتغاء الله . . . » .

وأنكره بعضهم وقالوا : « إنما الوجه من معنى القصد والتوجه »[١] .

ونقتصر هنا فى التفسير البيانى ، على ما ألِفته العربية فى إطلاقها الوجهَ مقصوداً به الذاتُ ، وفيما جرى عليه بيانُها من مثل : وجه الحق ، ووجه الأمر ووجه الرأى ، ووجه النهار . . . دون أى ملحظ ينم عن تجسيد !

* * *

وأشار الرازى فى تفسيره إلى ما يتعلق به الملحدةُ فى « ربِّه الأعلى » من اقتضاء أن يكون هناك رب آخر دونه فى العلو[٢] .

وذلك من عقم الحس فيهم ، يغيب عنه سِرُّ العربية فى إطلاق هذه الصيغة دون قيد بمفضول ، وإنما القصد إلى المضى بالعلو إلى نهايته القصوى ، على ما التفتنا إليه فى تدبر صيغ : الحسنى واليسرى والعسرى ، والأشق .

ونظيره فى الإطلاق بغير حدود ولا قيود ، قوله تعالى فى سورة الأعلى : « سبح اسم ربك الأعلى » لا يعنى أن هناك ربًّا عاليًا دونه ، وإنما هو إطلاق للعلو إلى أقصى مداه ، دون ملحظ من المفاضلة بين أعلى وعالٍ[٣] .

* * *

(١) الراغب : مفردات القرآن (وجه) .

(٢) التفسير الكبير : ٨/ سورة الليل .

(٣) بمزيد تفصيل فى مبحث : السجع ورعاية الفاصلة ، من (الإعجاز البيانى للقرآن) .

وأكثر المفسرين على أن فاعل « يَرضى » المضمر ، هو الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى .

ونؤثر أن نبقيه على إطلاقه ، فيحتمل رِضَى الأتقى ، ورِضَى ربه الأعلى .

والبيان القرآنى يأتى بهذين الوجهين من الرضى متلازمين ، فى مثل آية الفجر :

« يأيتها النفسُ المطمئنة * ارجعى إلى ربِّك راضيةً مرضيةً » .

وآيات : البيِّنة فى خير البريَّة ، والمجادلة فى حزب الله ، والمائدة فى الصادقين :

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » .

وفسروا رِضَى العبد عن ربِّه فى آية الليلِ ، بأنه لا يكره ما يجرى به قضاؤه تعالى . (مفردات الراغب) .

وهذه العبارة تقصر عن جلال الآية : « ولسوف يرضى » .

ولن تكون غاية رِضَى الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ابتغاء وجه ربه الأعلى ، إلا أن يرضى عنه ربه ، ولسوف يرضى .

وإنها لكَمَا قال « ابن القيم » : أعلى الغايات وأشرف المطالب[1] .

* * *

وعلى هذا النسق من البيان المعجز ، يتم الربطُ بين المُقسَم به فى أول السورة :

« والليلِ إذا يغشى * والنهارِ إذا تجلى * وما خلق الذكَرَ والأنثى »

والمقسَم عليه من تفاوتِ سعىِ البشر فى الأولى ، بين إعطاءٍ خيِّر وتقوى وتصديق بالحسنى ، وبخل خاسر وتكذيب بالحسنى .

ثم التفاوت فى الأخرى ، بين مصيرِ الأشقى الذى يَصْلى ناراً تَلَظَّى ، والأتقى « الذى يؤتى ماله يتزكى * وما لأحد عنده من نعمةٍ تُجزَى * إلا ابتغاء وجهِ ربِّه الأعلى * ولسوف يرضى » .

صدق الله العظيم

---

(١) التبيان : ٧٢ .